ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

Spatial Representations in the Novels of Khudair Faleh Al-Zaidy

Abdulbasit Shakour Ghaeb

General Directorate of Education of Salah al-Din

Saad Yassin Latif

Tikrit University / College of Education for Humanities

* *Corresponding author: E-mail* :
As24o18oped@st.tu.edu.iq

***Keywords*:**
Spatial representations,
Khudair Faleh Al-Zaidy,
narrative fiction,
self and other,
enclosed space.

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 3 Feb 2026
Received in revised form 25 Mar 2026
Accepted 27 Mar 2026
Final Proofreading 31 July 2026
Available online 31 July 2026
E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

This research examines and analyzes "spatial representations" in the novels of the Iraqi writer Khudair Faleh Al-Zaidy, starting from the premise that place in his texts transcends its traditional function as a framework for events to become an active structural element and a generator of meaning. The research aims to reveal how the narrative space is transformed into an arena for psychological, social, and existential conflicts, and the manifestations of this through exploring the dialectical relationship between "self" and "other" within diverse spatial frameworks.

The research adopts a critical analytical approach, deconstructing the spatial structures in several of Al-Zaidy's novels, focusing on different types of places such as open and closed spaces, and hostile and familiar spaces. The research concludes that Al-Zaidy employs these spaces as narrative tools to reveal crises of identity, the breakdown of belonging, and the fracturing of the relationship between the individual and their environment. The research also demonstrates that place in al-Zaydi's world is not merely a physical entity, but a symbolic structure imbued with a history of violence, memory, and forced transformations, making it a mirror of contemporary Iraqi reality and a testament to the human experience in confronting its destiny.

DOI: http://doi.org/10.25130/jtuh.33.7.1.2026.3

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

التمثلات المكانية في روايات خضير فليح الزيدي

عبدالباسط شكور غائب/ المديرية العامة لتربية صلاح الدين

سعد ياسين لطيف/ جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الخلاصة:

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل "التمثلات المكانية" في روايات الكاتب العراقي خضير فليح الزيدي، منطلقاً من فرضية أن المكان في نصوصه يتجاوز وظيفته التقليدية كإطار للأحداث ليصبح عنصراً بنيوياً فاعلاً ومولّداً للدلالة .يهدف البحث إلى الكشف عن كيفية تحويل الفضاء الروائي إلى ساحة للصراعات

النفسية والاجتماعية والوجودية، وتجليات ذلك من خلال استكشاف العلاقة الجدلية بين" الأنا "و"الآخر "ضمن أطر مكانية متنوعة.

يعتمد البحث منهجاً تحليلياً نقدياً، حيث يقوم بتفكيك البنى المكانية في عدد من روايات الزيدي، مع التركيز على أنواع الأمكنة المختلفة مثل المكان المفتوح والمغلق، والمكان المعادي والأليف .وقد توصل البحث إلى أن الزيدي يوظف هذه الأمكنة كأدوات سردية للكشف عن أزمات الهوية، وانكسار الانتماء، وتصدع العلاقة بين الإنسان ومحيطه .كما يوضح البحث أن المكان في عالم الزيدي ليس مجرد معطى مادي، بل هو بنية رمزية مشحونة بتاريخ من العنف والذاكرة والتحولات القسرية، مما يجعله مرآة للواقع العراقي المعاصر وشاهداً على تجربة الإنسان في مواجهة مصيره.

الكلمات المفتاحية: التمثلات المكانية، خضير فليح الزيدي، السرد الروائي، الأنا والآخر، المكان المغلق.

المقدمة

يحتل مفهوم" المكان "في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة منزلة مركزية، متجاوزاً كونه مجرد حيز جغرافي أو خلفية محايدة تجري عليها الأحداث .فهو بنية دلالية عميقة، وفاعل أساسي في تشكيل وعي الشخصيات وتحديد مصائرها، ومرآة تعكس التحولات الاجتماعية والسياسية والنفسية .وفي هذا السياق، يأتي هذا البحث ليسبر أغوار" التمثلات المكانية "في عالم الروائي العراقي خضير فليح الزيدي، الذي استطاع أن يوظف المكان ببراعة فنية فائقة، ليحوله من مجرد إطار سردي إلى فضاء إشكالي مشحون بالتوترات والأسئلة الوجودية.

يسعى هذا البحث إلى تحليل الكيفية التي يتجسد بها المكان في روايات الزيدي، ليس كمعطى ثابت، بل ككيان متحول ومتفاعل، يرتبط عضوياً بتجربة الإنسان في عالمه المعاش .سنستكشف كيف تصبح الجغرافيا مسرحاً للصراع النفسي والاجتماعي، وكيف تغدو الأمكنة (المفتوحة، المغلقة، المعادية، والأليفة) استعارات كبرى تكشف عن جدلية العلاقة بين" الأنا "و"الآخر"، وتلقي بظلالها على مفاهيم محورية كالهوية، والانتماء، والذاكرة، والاغتراب .ومن خلال قراءة تحليلية معمقة، سيكشف البحث عن الأبعاد الفكرية والجمالية التي يكتنزها الفضاء الروائي عند الزيدي، مبيناً كيف يصبح المكان شريكاً فاعلاً في بناء السرد، ومولِّداً للمعنى، وشاهداً على مأساة الإنسان العراقي المعاصر.

التمثلات المكانية في روايات خضير فليح الزيدي

تمثِّل فكرة المكان في الأدب أحد أهمِّ الأبعاد التي تحمل دلالات ثقافية واجتماعية عميقة، إذ تستمرُّ في تفاعلها مع الشخصيات والأحداث، ممَّا يضيف بعداً إضافياً إلى معاني النصوص الأدبية، لكن في روايات خضير الزيدي تجسَّد المكان ليس كعنصر جغرافي أوفنيّ، وإنَّما تجسَّد كفضاء مجازيّ استطاع شحن النصوص بمعانٍ متعددة، توزعت بين الأنا والآخر، إذ يرتبط المكان في رواياته بتجربة الإنسان في عالمه المعاش، فتصبح الجغرافيا مسرحاً للصراع النفسي والاجتماعي، وتغدو مرآة تكشف عن التحولات التي تمرُّ بها الشخصيات، يتَّضح من خلال توظيفه للمكان في سردياته أنَّ المكان لم يكن مجرَّد خلفية للأحداث، بل هو شريك فعَّال في بناء الرِّواية، وهو((المكان اللفظي المتخيل، أي المكان الذي تصنعه اللغة الأدبية خدمة للتخييل الروائي))

(ضبع، ٢٠١٨، صفحة ص٥٣)،إذ يرتبط بشكل وثيق " بشخصية الأنا"، كما يتداخل مع الآخر" الاجتماعي، الثقافي، السياسي"، إذ ينقل الكاتب عبر هذه العلاقة بين الأنا والآخر، صورة متحرّكة للمكان، تتراوح بين التبجيل والرفض؛ بين الانتماء والاغتراب، ممَّا أضفى على نصوصه طابعاً مليئاً بالأسئلة الوجودية عن الهويَّة والانتماء والذاكرة.

تقدِّم روايات الزيدي لنا أماكن ليست ثابتة بل قابلة للتَّحوُّل والتغيير، تعكس تقلبات الحياة وتدخلاتها، والمكان في رواياته لا يقتصر على كونه عنصراً مكانياً محضاً، بل هو ساحة لتجسيد الأزمات والصراعات الداخلية للشخصيات ((ينتقل فيه القارئ إلى عالم خياليٍّ من صنع كلمات الروائيّ ويقع هذا العالم في مناطق مغايرة للواقع المكانيّ المباشر الذي يتواجد فيه القارئ)) (قاسم، ٢٠٠٤، صفحة ص١٠٣) ، وصورة لحركة الذات البشرية بين التَّكيُّف مع الواقع والرفض له، وعليه يمكن أن ندرس في هذا البحث تمثُّلات المكان من خلال منظور الأنا والآخر، وعبر المكان المعادي المغلق والمفتوح، والمكان الأليف المغلق والمفتوح، باعتبارها أداة سردية تفتح لنا أبواباً لفهم العلاقة المعقَّدة بين الذات والآخر، وعلاقتها بالبيئة المكانية التي تتحرك فيها الشخصيات وتفاعلها مع التاريخ والسياسة والمجتمع.

أولاً: الأنا والآخر والمكان المعادي:

تتعدَّد القضايا الإنسانية التي يعالجها الأدب العربي المعاصر ولا سيما الرواية العربية، كما تظلُّ مسألة التفاعل بين الأنا والآخر، والمكان المعادي من أبرز الموضوعات التي تثير تفكير الكتَّاب والنُّقَّاد، وهنا تأتي روايات خضير الزيدي كمثال على معالجة هذه القضايا، ففي منجزه السرديّ تتشكَّل الرواية بوصفها فضاءً إشكالياً تتقاطع فيه الأنا مع الآخر داخل مكان معادٍ لا يكتفي بأن يكون إطاراً للأحداث، بل يغدو عنصراً فاعلاً في إنتاج المعنى وتوجيه مسارات الوعي السرديّ، إذ يمكن القول أنَّ المكان المعادي هو((المكان الذي لا يحب الإنسان المكوث فيه نتيجة إحساسه بعدم الطمأنينة والألفة نحوه، إذ يشعر بالضيق والكراهية)) (كريم، ٢٠٠٣، صفحة ص٢٤٧) (سليمان، ٢٠٢٤، صفحة ص١١١)، فالرواية لديه لا تبنى على حكاية واحدة بل على شبكة كبيرة ومعقَّدة من العلاقات الاجتماعية والنفسية والوجودية، والتي تتحكَّم بالذات وهي تواجه عالما تتنازعه الذاكرة والعنف والتحولات القسرية، ومن الضروري دراسة هذه الأمكنة في النُّصوص السَّرديَّة؛((لأنَّ الشخصية ترتبط بها ارتباطاً روحياً له دلالة مادِّيَّة ومعنوية لا يمكن تجاوزه)) (ضبع، ٢٠١٨، صفحة ص٤٧) أمَّا المكان المعادي فلا يُقدَّم بوصفه خلفية محايدة للأحداث، بل يتحوَّل إلى كيانٍ سرديٍّ نابض بالعداء، والضغط، والقهر؛ إذ يتبين((أنَّ معايشة الانسان للمكان وتآلفه معه أو معاداته له يشكِّل الخلفية الارتكازية لكل تصور أو توجه أو تشكيل فني)) (عقاق، ٢٠٠٢، صفحة ص١٧)، وإنَّه مكان مأزومٌ مشحون بتاريخ من العنف والحروب والانهيارات الاجتماعية، إذ يفرض سطوته على الشخصيات ويعيد تشكيل وعيها وسلوكها فالمدينة، والقرية، والمنفى، وحتى الأمكنة الداخلية المغلقة تتلبَّس طابعاً عدائياً يجعل من العيش فيها فعل مقاومة يوميّ، إذ يحوِّل العلاقة بين الإنسان والمكان إلى علاقة صدام لا تهدأ (مرتاض، ١٩٩٨، صفحة ص١٢٣).

تأسست جدلية العلاقة بين الأنا والآخر والمكان المعادي في السرد الروائي للزيدي على رؤية فكرية وجمالية ترى الإنسان العراقي كائناً واقعاً في قلب مأساة مستمرَّة، إذ لا ينفصل الذاتي عن

الجمعي، ولا النفسي ولا عن السياسي ومن ثمَّ فإنَّ دراسة هذه الجدلية لا تقتصر على تحليل الشخصيات أو الأمكنة بوصفها عناصر فنية، بل تتجاوز ذلك إلى مساءلة الخطاب الروائيّ نفسه، وبوصفه خطاباً كاشفاً عن أزمة الهوية، وانكسار الانتماء وتصدع العلاقة بين الإنسان وفضائه الوجوديّ.

١-المكان المفتوح:

يصنف المكان المفتوح من أهمِّ العناصر السردية الذي يتجاوز وظيفته الوصفية ليغدو عنصراً دلالياً فاعلاً في بناء المعنى، ولا سيَّما في النصوص التي تتناول أزمنة التَّوتُّر والاضطراب، لذلك فإنَّ المكان المفتوح هو((كل حيز كبير أو صغير، قائم أو متحرك، ثابت أو متغير يحتوي الحدث والشخصية والفكرة)) (نجم، ٢٠١٦، صفحة ص١١٣)، يتجلى المكان المفتوح في روايات الزيدي بوصفه فضاءً حركياً ضاغطاً تتقاطع فيه سلطة الأنا مع سلطة الآخر، وذلك ضمن سياقٍ عقلانيٍّ تحكمه قوانين التفتيش والامتثال والمراقبة، وقد جاءت تلك التقنية الفنيَّة لتغطِّي مساحة واسعة من أعمال الزيدي، إذ يقول:

((تحركت سيارته بعد نفاد صبره من الانتظار أمام الحاجز. راح من جديد يبحث عبر فروع ضيقة جداً ليتجاوز العقدة الأولى للشوارع المغلقة التي اعترضت طريقه بحواجز الكونكريت، حتَّى نجح أخيراً. وصل بسيارته الشارع العام من حيٍّ الجامعة نحو الطَّريق السريع الذي يقابل حيَّ العدل عندما أخرج السيارة من حاجزين ضيقين، لكنَّ الأمور لم تكن وردية، فقد لحقت به سيارة شرطة بصوتها المخيف وأجبره الضابط على التوقف والخضوع للتَّفتيش. ترجلت المرأة والبنت الحامل ماسكة بأسفل بطنها ويعقوب يرفع يديه للخضوع التام لتفتيش صندوق السيارة)) (الزيدي، ٢٠٢٠، صفحة ص٧١).

يتمثَّل المكان المفتوح في النصّ السرديّ من خلال ذكر تلك الأمكنة كالشوارع العامَّة، والحواجز الكونكريتيه والطَّريق السريع، وهي فضاءات مفتوحة تتصل بالعالم الخارجي، تعيش حركة دائمة مستمرَّة، وتؤدِّي وظيفة واضحة، فهي سبيل الذي يلجأ إليه الناس لقضاء حوائجهم، وهي فضاءات غير مغلقة من الناحية الفيزيائية، غير أنَّها محاصرة من حيث الدلالة والوظيفة، فالشوارع التي يفترض أن تكون رمزاً للحريَّة والتنقل، تتحوَّل إلى مسارات قسرية تُفرض فيها الحركة وفق إملاءات الحواجز الأمنية، وهنا يبرز التناقض الجوهريُّ في المكان المفتوح؛ أي أنَّ انفتاحه الشكليُّ يقابله انغلاقه السلطويّ.

يصطدم العقل كأداة بحدود المكان المفتوح حين يتدخل الآخر ممثلاً عند هذه اللحظة تفقد الأنا زمام المبادرة، وتتحوَّل من فاعل متحرِّك إلى ذات خاضعة، ترفع يديها في إشارة استسلام تام، وهكذا ينتقل المكان من فضاء حركة إلى فضاء إخضاع، لأنَّ ((العلاقة بين الإنسان والمكان تظهر بوصفها علاقة بين المكان والحرية)) (سعادنه، ٢٠١٩، صفحة ص٢٥) ، إذ تتحول الأنا المتمثلة "بشخصية يعقوب القنفذ" من ذات تخطيط إلى ذات الامتثال، أمَّا الآخر، فيمثِّل في النصّ السلطة الأمنية، التي تتعامل مع المكان بوصفه مجال سيطرة وتنظيم، فالشرطة لا تظهر في مكانٍ مغلق أو مركز رسميّ، بل في الشارع العام، ممَّا يؤكِّد أنَّ المكان المفتوح قد صار امتداداً مباشراً لمؤسسات الضَّبط، فصوت السيارة المخيف لا يكتفي بتحديد حضور الآخر، بل يعمِّق هيمنته النفسية ليصبح المكان نفسه أداة تهديد.

إنَّ عقلانية الآخر لا تقوم على الحوار أو التفاهم، بل على الإجراءات المتخذة، كالتوقيف، والتفتيش، والإنزال القهري والقسري للركاب، وهذه العقلانية الإجرائية تجعل المكان المفتوح ساحة اختبار للانضباط، وإنَّ علاقة الأنا بالآخر تتحدد تبعا لاختلاف المكان، إذ لا تبقى هذه العلاقة على وتيرة واحدة بل تتغير بتغير الفضاء الذي يجمعهما، كما أنَّ حرية الحركة لا تمنح بصورة مطلقة، وإنما تختلف من مكان لآخر، وهنا يمكن القول عن الأفراد إنَّهم يقاسون بمدى خضوعهم للقانون لا بإنسانيتهم، ويتعزَّز هذا البعد مع وجود المرأة والبنت الحامل، إذ لا يخفف وضعهما من صرامة الفعل السلطوي، ممَّا يؤكد برودة العقل السلطوي وهيمنته على الفضاء.

فرض المكان المفتوح علاقة غير متكافئة بين الأنا والآخر، تقوم على المراقبة والاشتباه الدَّائم، فكلُّ حركة في هذا الفضاء مرئية، وكلُّ محاولة للانقلاب، تنتهي بإعادة الإخضاع، وبذلك لا يعود المكان وسيطاً محايداً بين الطَّرفين، بل يصبح طرفاً ثالثاً منحازاً للآخر السلطويّ، وهنا أصبح المكان المفتوح معاديا للأنا لمضايقته من الآخر، كما يكشف النصُّ أنَّ العقلانية

المشتركة بين الأنا والآخر لا تؤدّي إلى التفاهم، بل إلى توتر صامت، تُحسم نتائجه مسبقاً لصالح من يمتلك سلطة المكان، فالأنا تعقلن الخضوع، والآخر يعقلن القمع، والمكان المفتوح يحتضن هذا التوتر بوصفه مسرحاً دائماً له، يتبين مما سبق أنَّ المكان المفتوح في النصِّ السرديّ، ليس فضاءً للحرية بل بنية قمعية متنقلة تعاد صياغتها عبر الحواجز والطرق والدوريات، ومن خلاله تتحدد العلاقة بين الأنا والآخر، وهي علاقة يحكمها ميزان قوَّةٍ محتلٍّ، تتراجع فيه الذات الإنسانية أمام سلطة المكان غير الآمن، وهكذا يتحوَّل المكان المفتوح من إطار للأحداث إلى أداة فاعلة في إنتاج الدلالة، وكشف واقع الاغتراب والخضوع للتجربة السردية يتعدد المكان المعادي المفتوح في نصوص الروائي، الذي يعد من أبرز التقنيات السردية التي تتجاوز وظيفتها الوصفية لتؤدي دوراً بنيوياً في إنتاج المعنى، وفي هذا النصِّ السرديّ لم يظهر المكان بوصفه إطاراً محايداً للأحداث، بل يسهم في تشكيل الرؤية الفكرية للنصِّ، ويؤثِّر على تموضع الأنا والآخر داخل خطاب الحرب والسلطة، وقد أشار السارد إلى هذه التقنية بشكل واسع في رواياته، ومنه قوله :

((سفح قنديل في دقيقة حرجة: يقتضي الاتفاق المبرم في ساعة قصف مكثَّف، بأن نستبدل الأدوار بين شهيد ومفقود، في مصطلحات الحرب اللعينة. إذ جرت العادة على أن تحظى عائلة القتيل في الحرب بالسعادة وتكون هي الأكثر ثراءً من بقية المغدورين في الحرب. مكرمة القائد لذويه سيارة حديثة، وراتب للزوجة وآخر للأب والأم، ثمَّ قطعة أرضٍ ومعها سلفة بناء وامتيازات أخرى، بينما زوجة المفقود تكتفي بالراتب الذي يسدُّ الرمق فقط، زوجة المفقود تتمنى أن تعثر على عظمتين أو بقايا جمجمة كي يحسب شهيداً وتنال هي التكريم الواجب والزوج إن رغبت. معادلات فنتازية أوجدتها قوانين السلطة)) (الزيدي خ.، رواية صديقي المترجم، ٢٠٢٢، صفحة ص١٢٩)

يشير المكان المفتوح في النص السردي إلى فضاء غير محدود، مكشوف وقابل للاختراق وغالباً ما يرتبط بحالات الخطر، والتيه، وانعدام السيطرة، وعلى خلاف المكان المغلق الذي يوحي بالاحتواء أو الحماية، فإنَّ المكان المفتوح يعكس هشاشة الوجود الإنساني وتعرُّضه الدَّائم للتَّهديد، تجسَّد المكان المفتوح في عبارة "سفح

قنديل" وهي تسمية تحيل إلى فضاء طبيعي مكشوفٍ، بلا حدود فاصلة، يتلاءم مع ظرف القصف المكثَّف، ويؤسس منذ البداية إلى حالة انكشاف وجوديٍّ.

يبدو أنَّ النصَّ لم يفصِّل في ملامح المكان بشكلٍ وصفيٍّ، بل يكتفي بالإشارة إليه، وهوما يمنحه طابعاً رمزياً لا واقعياً صرفاً فالمكان هنا مفتوح من الناحية الجغرافية، من خلال " سفح لا مأوى، كما جاء مفتوحا من الناحية الدلالية" تعدد التأويل"، كما جاء مفتوحاً من الناحية المصيرية "غياب الحسم بين الموت والحياة"، هذا الانفتاح المكاني يوازي انفتاح المصير الإنساني،((وهوما يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر حقيقيٍّ)) (الحمداني، ١٩٩١م، صفحة ص٦٥) إذ يغيب الحدُّ الفاصل بين شهيد ومفقود، ويتحوَّل التصنيف إلى إجراء إداري لا حقيقة وجودية.

أمَّا أثر المكان المفتوح في تشكيل الأنا، إذ تتشكل الأنا الساردة داخل هذا الفضاء المفتوح بوصفها ذاتاً واعية، مدركة لآليات السلطة، وقادرة على تفكيكها، فالمكان المكشوف لا يوفِّر ملاذاً للذات، بل يدفعها إلى المراقبة والتحليل، لا إلى الانغماس الانفعالي، لأنَّ ((الأماكن المفتوحة تمتلك القدرة على الاتصال والتواصل مع أماكن أخرى، وهذا ما لا نجده في الأماكن المغلقة)) (شرشاب، ٢٠٢١، صفحة ص٦٦).

إنَّ عقلانية الأنا نتجت عن انكشاف الواقع دون حواجز، فالمكان المفتوح يكشف التناقض بين عنف الحرب المادي، وعنف القوانين الرمزية التي تليها وبذلك تصبح الأنا نتاجاً مباشراً لهذا الفضاء، إذ يتحوَّل الوعي إلى أداة مقاومة رمزية في غياب أيِّ حماية مادية، أمَّا الآخر وأقسامه،((فهو عملية ممتدَّة في الزمان ولا تتوقف أبداً وذلك بسبب التفاعل الإنسانيّ بين الشعوب)) (زادة، ٢٠١٤، صفحة ص١٢٧) ،أمَّا تمثُّله في النصِّ السرديِّ، فيمثِّل في زوجة المفقود، ذاتاً عاقلة لكنَّها محكومة بشروط المكان المفتوح، فهي تعيش في فضاء لا يضمن الاستقرار ولا اليقين، ما يفرض عليها نمطاً خاصاً من العقلانية يقوم على التكثيف، في هذا السياق ينتج المكان المفتوح وعياً براغماتياً لدى الآخر، إذ يدرك أنَّ الغياب غير المعترف به أسوأ من الموت المعترف به، فيتمنى إغلاق هذا الفضاء المفتوح عبر العثور على بقايا الجسد، وعليه فإنَّ عقلانية الآخر ليست أخلاقية بقدر ما هي عقلانية اضطرارية فرضها فضاءً مكشوفٌ لا يحتمل الانتظار الطويل، لذلك يعمل المكان المفتوح على توحيد الأنا والآخر شرط الانكشاف، لكنه يوزع الأدوار بينهما، فالأنا تمارس عقلانية نقدية تحليلية، أمَّا الآخر فيمارس عقلانية وجودية معيشة، إذ يكشف هذا التوزع أنَّ المكان المفتوح لا ينتج وعياً واحداً، بل أنماطاً متعددة من العقلانية تتفاوت بحسب موقع الذات من الحدث والسلطة، يبين لنا هذا التحليل أنَّ تقنية المكان المفتوح في النصِّ ليست اختياراً عرضياً، بل بنية دلالية فاعلة تسهم في إنتاج المعنى، فسفح قنديل" يتجاوز كونه موقعاً جغرافياً ليغدو فضاءً رمزياً لانكشاف الإنسان، وتعليق المصير، وإعادة تعريف الموت وفق قوانين السلطة، من خلال هذا الفضاء تتشكَّل الأنا والآخر بوصفهما ذاتين داخل نظام غير عقلانيٍّ، إذ يصبح المكان المفتوح عاملاً مركزياً في تحويل الوعي الإنساني من يقين أخلاقيٍّ إلى عقلانية قسرية فرضتها الحرب،

تتوالى الأمكنة المعادية المفتوحة في روايات الكاتب باعتبارها أداة فنية في النص الروائي،((فالروائيُّ دائم الحاجة إلى التأطير المكاني غير أنَّ درجة هذا التأطير وقيمته تختلفان من رواية إلى أخرى)) (الحمداني، ١٩٩١م، صفحة ص٦٥)، وفي هذا النصِّ تتجلى الصحراء بوصفها مكاناً مفتوحاً قاسياً ذا حمولة رمزية

ونفسية كثيفة، تؤثِّر مباشرة في الأنا الساردة والمرويّ عنها، وتستدعي حضور الآخر، سواء أكان إنساناً أم مفهوماً متجسداً، وقد ذكر الكاتب ذلك في قوله:

((فالصحراء تبعث على نوع من الكآبة القاسية: تذكر لميس عن الحاج أنَّه كان عندما يشعر باستفحال آفة الكآبة، وهجوم جيشها عليه، يذهب مسرعاً للاستحمام، وبعدها إلى النوم الطويل، وتلك طريقته المبتكرة لتلافي غول وحشة الصحراء، ماذا حصل له، ممَّا كان يعاني الرجل؟ لا أحد يعرف مطلقاً)) (الزيدي خ.، رواية عمتي زهاوي، ٢٠٢٠، الصفحات ص٢٩٦-٢٩٧).

يفتتح الروائي النَّص بتوصيف الصحراء بوصفها باعثة " نوع من الكآبة القاسية" وهو توصيف لا ينتمي إلى المعجم المكاني بقدر ما ينتمي إلى المعجم النفسي، فالصحراء هنا ليست امتداداً زمنياً مفتوحاً، بل فضاء داخليٌّ يعكس حالة نفسية مضطربة، فانفتاح المكان واتساعه الخالي من العلامات يولد إحساساً بالضياع والوحدة، يحوِّل الصحراء إلى مرآة للفراغ الذاتي الذي تعيشه الأنا، وهوما يفسر اقترانها بالكآبة لا بالحريَّة، وبذلك ينتقل المكان من كونه معطى خارجياً إلى كونه حالة وجودية، إضافة إلى أنَّ المكان شكَّل فضاء واسعاً، لما يكتنزه من تفاصيل كثيرة تفتح آفاقاً واسعة للمتخيل السرديّ، لقد مثلت الأنا الوعي المأزوم إذ تجسَّدت عبر شخصيتين، منها الأنا الساردة وهي شخصية حسن الغناوي، إضافة إلى الأنا، المتمثلة بشخصية لميس التي تنقل تجربة الآخر المرويّ عنه الممثِّل بشخصية بالحاج صبري الكرخي الذي يعاني من هجوم الكآبة، فالآخر هنا هو واعي بمرضه مدرك لاستفحال آفة الكآبة، ويتعامل معها باعتبارها قوَّة منظَّمة ذات جيش لا مجرَّد شعور عابر، هذا الوعي العقلي حوَّل المعاناة النفسية إلى صراع عقلانيٍّ مع قوَّة مقابلة، ومنح التجربة عمقاً فلسفياً تجاوز التفسير العاطفي البسيط، والآخر الذي مثَّلته صورة الحاج صبري الكرخي الذي كان يجد الوسيلة للهروب من الواقع الأليم، والفراغ المكاني الموحش، الذي يثير الخوف والهلع في النفس، هذا التَّجسيد حوِّل المكان إلى كيانٍ معادٍ، دخل في صراع مع الأنا، في حين تظهر الكآبة في شخص الحاج صبري الكرخي بوصفها جيشاً يهاجم، وهذا ما يضفي عليها بعداً منظَّماً؛ لأنَّ؛ ((ثنائية الأنا والآخر إذا ما عولجت من منظور حواريٍّ، فإنَّها لن تؤدِّي بالضرورة إلى صدام، بل من شأنها السير بالإنسانية إلى مزيد من السلام)) (الغزّي، ٢٠٠٦، صفحة ص١١٩) ، إنَّها ليست حالة ذاتية صامتة بل قوَّة واعية لها هجوم واستفحال.

بهذا المعنى يصبح الآخر العاقل قوَّة مركبة تتجسَّد في المكان والنفس معاً، وتفرض حضورها بوصفها نقيضاً لسلام الأنا، أمام هذا الآخر لم تلجأ الأنا إلى المواجهة المباشرة بل إلى طقوس بسيطة الاستحمام والنوم الطويل، ورغم بساطتها يصفها النص بأنَّها طريقته المبتكرة وهذا ما يمنحها قيمة فنية ورمزية، فالاستحمام رمز الطهارة، والنوم رمز الانسحاب الهادئ والمؤقت من وعي الصحراء والكآبة؛ إنَّها مقاومة عقلانية صامتة وليست بطولية كشفت هشاشة وضعف الإنسان أمام المكان المفتوح المعادي، وتؤكِّد أنَّ الانتصار ليس دائماً فعلاً صاخباً بل قد يكون تأجيلاً واعياً للهزيمة.

يختتم النصَّ بسؤال معلق" ماذا حصل له؟ ممَّا كان يعاني الرجل؟ لا أحد يعرف مطلقاً" لقد عمَّق هذا الغموض الأثر الفنيَّ للمكان المفتوح، فكما أنَّ الصحراء بلا حدود فإنَّ المعاناة بلا تفسير نهائيٍّ، لأنَّ؛((الفضاء الدلالي يتجاوز الواقعية ليتحول إلى وعاء لغويٍّ)) (زروقي، ٢٠٢٣، صفحة ص٣٢) ، إنَّ غياب الإجابة يحوِّل التجربة

من حالة فردية إلى تجربة إنسانية عامة، كما جعل من المتلقي شريكاً في القلق والتأويل، مما سبق يُظهر النصُّ الصحراء بوصفها مكاناً مفتوحاً فاعلاً لا حيّزاً محايداً، ويكشف عن أثرها العميق في تشكيل وعي الأنا، واستدعاء الآخر العاقل بصورة الكآبة والوحشة، ومن خلال هذا التفاعل تتأسس بنية سردية نفسية يكون فيها المكان عنصراً مولّداً للمعنى، ومحرّكاً للصراع الوجوديّ، وهكذا ينجح النصُّ في تحويل الفضاء المفتوح إلى سؤالٍ مفتوحٍ عن الإنسان، وحدوده وقدرته على التَّكيُّف مع قسوة الوجود.

٢- المكان المغلق

يعد المكان المغلق عنصراً فاعلاً في العملية السردية، إذ لا يقتصر دوره على احتضان الأحداث، بل تتجاوز ذلك من أجل التأثير في تشكيل الوعي النفسي والفكري للشخصيات،((وهو مكان يدخل في بناء العمل الروائي بوصفه فسحة خلاقة تقدِّم تفاعلاً ملموساً مع شخصيات العمل)) (عبيدي، ٢٠١١، صفحة ص٦٧)، ويبرز المكان المغلق كفضاء مكثَّفٍ دلاليّ يعبِّر عن حالات الانكفاء والقلق، والتوتر الداخلي والخارجيّ، والمكان المغلق من بين التقنيات المهمة التي وظَّفها الزيدي في رواياته، إذ يقول:

((كما غاب أبطال مخطوطته الأخيرة غير المكتملة بنات غائب طعمة فرمان وكان قد تركها في غرفة المصنع، وغرفة المصنع هذه هي المكان الذي كتب فيه معظم رواياته، قبل أن يقرّر الهرب من بغداد بلا رجعة بعد مصرع صديقه البيرقدار، وممَّا ذُكر عن الرواية الأخيرة قول المستشرق الإنكليزيّ السيّد جيرالد جونيفر للإعلام، وهو الرجل المتخصص في أدب المغفور له" هي رواية مزعومة لم يظهر حتَّى الآن ما يؤكد ماديّاً ورسمياً العثور على مخطوطتها من أي جهة معتمدة ومعروفة بمصداقيتها" وهذا دليل واضح على ضياع المخطوطة في غمرة أجواء بغداد المضطربة)) (الزيدي خ.، رواية بنات غائب طعمة فرمان، ٢٠٢٣، صفحة ص١٤).

في هذا المشهد الروائي يفتتح الكاتب نصَّه بالإشارة إلى غرفة المصنع ذات الشكل المغلق والمساحة المحدودة غير أنَّه كان محملاً بطاقة رمزية عالية، فالغرفة لم تكن مجرَّد مكان أو موقع للكتابة، بل تحوَّلت إلى مختبرٍ إبداعيٍّ، وملاذٍ وجوديّ للأنا المبدعة التي تمثِّل شخصية غائب طعمة فرمان، فبوصفها المكان الذي كتبت فيه معظم الروايات ترسخ من خلالها البعد الزمنيَّ والنفسيَّ، وجعلها شاهداً على تشكُّل التجربة الإبداعية، إضافة لذلك فقد عكس المكان المغلق حالة الانفصال عن الخارج، لأنه ((فضاء تتمحور فيه الأحداث التي تجري من خلال الحوارات والوصف)) (عبيدي، ٢٠١١، صفحة ص٦٧)، ، ولا سيَّما بغداد التي وصفت بالمضطربة فالغرفة نقيض المدينة، لأنَّ الأولى فضاء للتركيز والعقلانية، والثانية فضاء للفوضى والتهديد، وهنا يبرز أثر المكان المغلق في خلق ثنائية الأمان والخطر، والداخل والخارج، تجلت الأنا في النصِّ السرديّ بوصفها ذاتاً واعيةً منظَّمة، ومنشغلة بالفعل الإبداعيّ، فالكتابة داخل غرفة المصنع هي فعل عقلانيٌّ مقاوم للفوضى المحيطة، لكنَّ هذه الأنا لم تبق مستقرَّة، فحادثة مصرع الصديق "البيرقدار" تشكِّل صدمة هزَّت هذا التوازن، وتدفع الأنا إلى اتخاذ قرار الهروب بلا رجعة.

وهنا يتحوَّل المكان المغلق من فضاء حماية إلى ذاكرة مهدَّدة، إذ تفقد الغرفة وظيفتها كملاذ دائمٍ، وتصبح مرتبطة بالفقد والقطيعة، ويتجلَّى البعد النفسيُّ للمكان في كونه مسرحاً لتحوُّل داخليٍّ عميقٍ من الإقامة إلى

الرَّحيل، ومن الاستقرار إلى المنفى، وتظهر أهمية المكان في تشكيل العالم الروائيّ، كونه مرآة تعكس على سطحها صورة الشخصيات، وتكشف من خلالها بعدها النفسي والاجتماعي، وأثر كلٍّ منهما على النصِّ الروائي.

أمَّا الآخر فقد ظهر في النصِّ عبر صوت "المستشرق الإنكليزيّ جيرالد جونيفر"، الذي اتَّخذ موقفاً نقدياً عقلانياً ظاهرياً، إذ شكَّك في وجود المخطوطة الأخيرة، وطالب بدليل ماديٍّ ورسميٍّ، وهذا الآخر لم يظهر بوصفه خصماً مباشراً، بل بوصفه سلطة معرفية خارجية تمارس فعل التَّقويم والتَّشكيك، غير أنَّ عقلانية الآخر هنا عقلانية باردة تفصل النصَّ عن سياقه التاريخيّ، والسياسيّ، وتتجاهل أثر "أجواء بغداد المضطربة" وبذلك ينشأ توتّر دلالي بين عقلانية الأنا التي تعي ظروف الفقد والضياع، وعقلانية الآخر التي تحاكم الإبداع بمعايير التوثيق الماديّ فقط يؤدي المكان المغلق دور الوسيط الصامت في هذه الجدلية، ((فهو المكان الذي تحده حدود، ما يجعل الحركة فيه تقل عن غيره من المكان المفتوح)) (سواحلية، ٢٠٢١، صفحة ص٦٣)، فالغرفة التي احتضنت الكتابة هي نفسها التي تشهد بشكل غير مباشر على ضياع المخطوطة، وبهذا يصبح المكان علامة على الضعف والهشاشة الثقافية في زمن الاضطراب، إذ لا تكفي العقلانية وحدها لحماية النتاج الإبداعي، كما كشف النصُّ عن مفارقة دلالية، فبينما يمثِّل الفضاء المغلق فضاء للعقل والتركيز، فإنَّ مصير النصِّ الضياع، إذ يؤكِّد محدودية هذا الفضاء أمام عنف الواقع الخارجي، وهنا تتقاطع رؤية الأنا والآخر، لكن من موقعين مختلفين، فالأنا تفسِّر الضياع سياقياً، والآخر يراه نقصاً في الدَّليل، لذلك فإنَّ المكان المغلق في النصِّ السرديّ ليس عنصراً وصفياً، بل بنية فنية فاعلة أسهمت في تشكيل الأنا، وإبراز علاقتها الإشكالية بالآخر، فقد مثَّلت غرفة المصنع فضاءً للإبداع والحماية، ثمَّ تحوَّلت إلى رمزٍ للفقد والانقطاع، من خلال هذا التَّحوُّل ينجح النصُّ في مساءلة حدود العقلانية، سواء كانت ذاتية أم خارجية، في مواجهة الاضطراب التاريخي والسياسيّ، وهكذا تجلَّى المكان المغلق بوصفه مرآة للذات وعتبة للصراع بين الذاكرة والنسيان، وبين الإبداع والتوثيق.

تعدُّ تقنية المكان المعادي المغلق من أبرز التقنيات السردية في النصِّ الرِّوائيّ، إذ يعتمد فيها الكاتب على حصر الأحداث داخل فضاء مكانيٍّ محدود، مثل غرفة، أو سجنٍ، أو بيت، إذ يسهم هذا التضييق المكانيّ في تكثيف التَّوتُّر الدراميّ وتعميق البعد النفسيّ للشخصيات، إذ يتحوَّل المكان من إطار جامد إلى عنصر متحرك، يكشف عن التحوُّلات الشعورية والفكرية داخل مسار الرِّواية، وقد سلَّط الكاتب الضوء لذلك قائلا:

((في ساعات النهار يكون عملنا داخل المركز محصوراً في التعامل مع الجثث الواردة لنا أو الصادرة عنَّا. ينحسر عملنا نحن فصيل الجنود غير المسلحين في إدخال الجثث المتفسخة إلى البراد المركزي لتتجمَّد ويتوقف عطن رائحتها مؤقتاً، ثمَّ تُرزم الجثث الطَّريَّة التي وصلت أول النهار، ويكبس لها رقم خاصٌّ يوضع على قفا الجثة الواردة، تُرفع ثمَّ ترصُّ بشكل متعاقب على طريقة تعليب سمك السردين في العلب، لغاية اليوم أكره النظر لعلب السردين، يثيرني منظر قطع السمك الرَّائب في العلبة المملوءة بالزيت، طريقة تعاقب الجثث ليس في الزنازين الضيقة فقط، وإنَّما في هذا البرَّاد العملاق، الجثث تقطر علينا كمطر تشريني، عليكم العمل

على طريقة الحلِّ والشدِّ في الرَّصِ، نحن في اشتباك واحتمالات، ورود جثث شهداء آخرين في الليل والنهار)) (الزيدي خ.، رواية فندق كويستان، ٢٠١٩، الصفحات ص٢٣-٢٤).

يمثِّل الفضاء المغلق في السرد عنصراً بنيوياً فاعلاً يتجاوز وظيفته الوصفية، ليغدو أداة كاشفة للبنية النفسية والفكرية للشخصيات، إذ يبرز هذا الفضاء كفضاء قهريٍّ يتيح وعياً مأزوماً، تتقاطع فيه السلطة والموت والاغتراب، يقدِّم النصُّ تجربة سردية قاسية داخل مركز للتعامل مع الجثث، إذ يتقاطع وعي الأنا مع حضور الآخر الغائب الحاضر، ضمن فضاء مغلقٍ يعيد تعريف العلاقة بين الحي والميت.

يعتمد النصُّ على السرد بالضمير الجمعي ممَّا يشي بوعي جمعيٍ يذوب فيه الفرد داخل منظومة قسرية، لأنَّ هذا الضَّمير لا يمنح الأمان بل يضاعف الإحساس بالذَّنب والاغتراب، إذ تتحوَّل التجربة إلى قدر مشترك لا مناص منه، كما تتَّسم اللغة بطابع إجرائيٍّ تقريريٍّ "إدخال، ترصُّ، يكبس، تُرفع" وهي لغة تحاكي آليات العمل اليوميّ، لكنَّها تنتج على المستوى الفنيّ إحساساً بالتشيؤ ونزع الإنسانية، وفي المقابل تتسلل اللغة المجازية لكسر الحياد التقريريّ، كما في تشبيه رصِّ الجثث، "بتعليب سمك السردين" وهي استعارة تنقل الجسد الإنسانيَّ من مجال الكرامة إلى مجال السلعة، وتفضح آلية العنف الرَّمزيّ الذي يمارسه المكان، هذا التداخل بين التقرير والمجاز يخلق توتُّراً فنياً يعكس اضطراب وعي السارد.

يتحدَّد المكان في النصِّ بالمركز " البراد المركزيّ، والزنازين الضيقة" وهي أمكنة مغلقة تتسم بالعزل والبرودة والتكديس،((وهو المكان الشبيه بالداخلي أو الضيق ينعكس على حالة الفرد نفسيا)) (مدقن، ٢٠٠٥، صفحة ص١٤١) ، لا يعمل المكان هنا كإطار محايد للأحداث، بل كقوَّة ضاغطة تفرض إيقاعها وقوانينها على الأموات والأحياء معاً، فالبرَّاد لا يوقف الموت بل يعلِّقه مؤقتاً في إشارة دلالية إلى عبثية السيطرة التقنية على الفناء، يؤدِّي تكرار أفعال الرصِّ والتكديس إلى تحويل المكان إلى آلة تنظيم للموت، إذ تمحى الفوارق الفردية، وتختزل الجثث بالأرقام، وهكذا يصبح المكان المغلق فضاء لإلغاء الهويَّة، وتكريس منطق السلطة الذي يحوِّل الإنسان إلى مادَّة قابلة للفرز والترتيب، أمَّا الآخر فقد تمثَّل في الجثث ولا سيما الشهداء،((والآخر لا يتجدد في الفردية، بل يتعدد بتعدد الأنا)) (السلطاني، ٢٠٢١، صفحة ص٢١٠) ، وهو توصيف يعيد إليهم بُعدهم الإنسانيّ والأخلاقي، ويمنحهم وعياً مؤجَّلاً في الذاكرة الجمعية، رغم صمتهم الجسديّ، فإنَّ حضورهم جاء تكثيفاً دلالياً، إذ يشكِّلون مرآة أخلاقية للأنا، المفارقة، فالآخر لا يُعامل كشيء داخل المكان المغلق، بينما يظلُّ وعيه الرَّمزيّ حياً في النصِّ، هذا التناقض عمَّق الإحساس بالذَّنب، وحوَّل العلاقة بين الأنا والآخر إلى علاقة مأساوية قائمة على الإدراك دون القدرة على الإنقاذ.

يفرض المكان المغلق علاقة قسرية بين الأنا والآخر، قائمة على الفعل التقني لا إنسانيّ، كما أنَّ فضاءات المكان المغلق ((تعتبر الحواجز والقيود التي تشكِّل عائقاً لحرية نشاط الإنسان وانتقاله من مكان إلى آخر)) (مدقن، ٢٠٠٥، صفحة ص٦٠) ، إضافة إلى أنَّ الأنا مضطرَّة إلى ممارسة التشيُّؤ والآخر مجبر على تلقيه، غير أنَّ اشتراك الطَّرفين في صفة "العقل" لا يؤدِّي إلى التواصل بل إلى مضاعفة المأساة، فالأنا تعاني لأنَّها تعي، والآخر يُهانُ يعين ولا ينقذ، وبذلك يتحوَّل المكان إلى وسيط عنيف يعيد تشكيل العلاقة الإنسانية على أسس لا أخلاقية، إذ يُختزل العقل إلى أداة للبقاء داخل النِّظام، إنَّ النصَّ خلص إلى تقديم تجربة سردية تكشف

بعمقٍ عن أثر المكان المغلق في تدمير العلاقات الإنسانية، وتحويل الأنا والآخر إلى طرفين عاجزين داخل منظومة قهرية، من خلال لغة صادمة، وبنية مكانية خانقة ينجح الكاتب بفضح آليات التشيؤ والعنف، دون اللجوء إلى خطاب مباشر، معتمداً على قوّة الصورة ووعي السارد المأزوم، وهكذا يغدو المكان المغلق ليس مجرَّد فضاء للموت، بل بنية فكرية تنتج الاغتراب وتعيد تعريف معنى الإنسانية في أقسى تجلياتها.

وفي نص آخر من روايات الزيدي يشكِّل المكان المغلق عنصرا مهما في بناء الأحداث وتشكيل الأبعاد الشخصية والنفسية والاجتماعية،((وهو الجغرافية الخلاقة في العمل الفني)) (مدقن، ٢٠٠٥، صفحة ص٥٧) ، فهو لم يكن مجرَّد إطار جامد تقع الوقائع عليه، وإنَّما فضاء دلالي عكس حالات العزلة والقهر والخوف، وقد يرمز للانغلاق الفكري والاجتماعيّ، ومن خلال توظيف المكان المغلق يستطيع السارد تعميق التَّوتُّر الدراميّ، وإبراز الصراعات الداخلية للشخصيات ممَّا يمنح النصَّ كثافة فنية ودلالية واضحة، وهذا ما سنوضحه في هذا النصّ الروائيّ، أذ يقول:

((تمَّ اختطافي بعد مغادرتي الجامع بعد الصلاة مساءً، احتجزوني في خربة نائية عن المدينة، كانوا يلحون عليَّ بإقامة صلاتي في ذلك المكان، كنت أذكى من مخططاتهم. فكلما حاولوا لمعرفة حركات يدي في أثناء الصلاة، علمت بخطتهم المدبَّرة، رفضت الصلاة مدَّعياً أنِّي لم أصل في حياتي قط" كيف ونحن التقطناك من باب الجامع؟" جئت إلى الجامع لترميم الحيطان المرطوبة على نفقتي" عجزوا عن إتمام المهمة بعد شهر تقريباً حتَّى أطلقوا سراحي بعدما تيقنوا بأنِّي ملحد قررت الابتعاد عن أشكال العبادات وأبقيت الدين في داخلي وكان ذلك أسلم لي للحفاظ على حياتي. لكن علاقتي بالله سبحانه وتعالى بقيت سرية جداً، علاقة عبد فقير بخالق عظيم. هي علاقة روحية بالله سبحانه من الخوف منه إلى علاقة جميلة فيها من العاطفة النقية والعلاقة الروحية الخالصة)) (الزيدي، ٢٠٢٠، صفحة ص٧٠).

يأتي هذا النصَّ بوصفه نموذجاً دالاً على توظيف المكان المغلق القسري في إبراز الصراع بين الأنا والآخر، لا على مستوى الجسد فقط، بل على مستوى الوعي والعقيدة والحرية الداخلية، مع بيان أثر المكان المغلق في تشكيل العلاقة بين الأنا والآخر، اعتمد النصُّ على ضمير المتكلِّم وهو اختيار فنيٌّ يعمِّق من حضور التجربة الذاتية ويمنح السرد بعداً اعترافياً، فالأنا لم تكن مجرَّد راوٍ للأحداث، بل شكلت ذاتاً واعية تمارس الفهم والتأويل والمقاومة.

يبدأ السَّرد من لحظة الاختطاف، وهي لحظة فاصلة تخرج الشخصية من فضائها الطَّبيعي " الجامع، المدينة، المجتمع" إلى فضاءٍ قسريّ معزولٍ "الخربة" وهذا الانتقال المفاجئ يؤسس لحالة اغتراب نفسيّ وفكريّ تتعزَّز مع تطوُّر الأحداث، فالأنا في النصِّ ذات عاقلة تمارس التفكير الاستراتيجيّ، وتدرك منذ البداية أنَّ الصراع ليس جسدياً فقط، وإنَّما هو صراع على الوعي والاعتقاد، لذلك تلجأ إلى المراوغة بوصفها آلية دفاع عقلانية.

يتجلى المكان المغلق في النصِّ من خلال الخربة النائية، وهي مكانٌ تتوافر فيه خصائص العزلة والانقطاع عن المجتمع، وغياب القانون، هذا المكان لا يوصف وصفاً حسيًّا تفصيلياً، وإنَّما يترك غامضاً؛ وهو غموض دالٌّ يعكس طبيعته القمعية، لذلك يمكن القول : إنَّ المكان المغلق يؤدِّي وظائف متعددة، إذ يقوم بتعطيل الزمن الطبيعي، ويحتجز السارد شهراً كاملاً فيتحوَّل الزمن إلى زمن انتظار وضغط نفسيٍّ، كما عمل المكان المغلق

على تكثيف الصراع، إذ أصبح المكان مسرحاً لمواجهة فكرية بين الأنا والآخر، وعمل على كشف هشاشة وضعف السلطة القسرية فبرغم امتلاك الآخر للقوّة المادّيَّة يفشل في اختراق العالم الداخلي للأنا، فالخربة ليست مجرَّد مكانٍ للاحتجاز بل رمز لفراغ أخلاقيٍّ وفكريٍّ، يقابل امتلاء الأنا بإيمان داخليٍّ صامت.

يقدِّم الآخر في النصِّ بوصفه جماعة تمتلك وعياً وخطَّة مدبَّرة، ممَّا جعله آخر عاقلاً لا غريزياً، فهم لا يعذِّبون الجسد مباشرة، بل يحاولون مراقبة الصلاة؛ أي مراقبة العلامات الخارجية للعقيدة، غير أنَّ العقل السلطويّ يقع في فخِّ المظهر، إذ يظنُّ أنَّ الإيمان يمكن اختزاله في الحركات الجسدية، وهنا يظهر التَّفوُّق العقليَّ للأنا التي تدرك هذا الخلل، فتختار إنكار الصلاة والادعاء بالإلحاد لتفشل الخطَّة بالكامل، كما يتحول الآخر من فاعل ضاغطٍ إلى كيانٍ عاجزٍ؛ يعجز عن إثبات ما يريد، وينتهي به الأمر إلى إطلاق سراح الأنا بعد التيقن الظاهر من إلحاده،((إنَّها القوَّة الآمرة التي بحوزتها الإمكانية الفعلية لتسيير أنشطة الناس بإدارة واحدة عن طريق الإقناع أو القسر)) (العيادي، ١٩٩٤، صفحة ص٤٣) ، رغم أن المكان الخارجي مغلق وقهري، فإن النصَّ يقدِّم بديلاً فنياً هو المكان الداخلي، فبعد الخروج من الخربة يصرِّح السارد بأنَّه أبقى الدِّين في داخله وحوَّل علاقته بالله إلى علاقة سرية روحية خالصة، من هنا تتجلى المفارقة الفنيّة، فالمكان المغلق المحصور فشل في قمع الإيمان، كما أصبح المكان الداخلي "الروح" فضاءً حرًّا لا يمكن للآخر اختراقه، وهنا تتطوَّر علاقة الأنا بالله من علاقة قائمة على الخوف، إلى علاقة جمالية روحانية، وهو تحول يدل على نضج الوعي وتجاوز منطق القهر.

نستنتج من ذلك أنَّ قدَّم النصُّ تجربة روائية عميقة تبرز الدور الفاعل للمكان المغلق في تشكيل الصراع بين الأنا والآخر، فقد جعل المكان من أداة قمع إلى محفز على تشكيل الوعي والمقاومة الصامته وأثبتت الأنا أنَّ الحرية الحقيقية لا تقاس باتساع المكان الجغرافي، بل بعمق المكان الروحي، وبذلك نجح النص في تقديم رؤية فنية وإنسانية تؤكد أنَّ الإيمان بوصفه تجربة داخلية يبقى عصياً على المصادرة، مهما اشتدت قبضة المكان المغلق وسلطة الآخر.

ثانياً: الأنا والآخر والمكان الأليف:

يتجلَّى المكان المفتوح الأليف بوصفه فضاءً دلالياً نابضاً بالحياة، يحمل أبعاداً نفسية واجتماعية ورمزية، ويؤسس لعلاقة حميمية بين الإنسان ومحيطه، فالأمكنة المفتوحة، كالأرياف والطرقات، والسهول، والفضاءات الطبيعية، لا تظهر باعتبارها مساحات عابرة، بل تتحوَّل إلى مواضع ألفة وانتماء، تستعدُّ فيها الشخصيات ذاكرتها الأولى وتواجه أسئلتها الوجودية.

إنَّ ألفة المكان المفتوح عند خضير الزيدي لا تنبع من اتساعه الجغرافي فحسب، بل من قدرته على احتضان الذات الإنسانية ومنحها شعورا بالأمان والاستمرارية، وهو((المكان الذي يربط شعور الشخصية الروائية بالراحة والاطمئنان)) (كاظم، ٢٠١٩، صفحة ص٥٣٠)، لذلك يغدو المكان المفتوح مرآة للهوية الفردية والجمعية، ووسيطاً فنياً يكشف من خلاله الكاتب عن توثيق العلاقة بين الإنسان والعالم؛ بين الماضي والحاضر، بين الحلم والواقع، فالشخصية تنطبع بطابع المكان الذي تعيش فيه لذلك تأتي جدلية العلاقة بين السكان والمكان،

مما((يؤثِّر السكان في المكان بعلاقة جدلية متفاعلة)) (عزام، ٢٠٠٥، صفحة ص٧٠)، بهذا المعنى شكَّل المكان المفتوح الأليف في رواياته أحد المفاتيح الأساسية لفهم بنيتها السردية ورؤيتها الفكرية.

١-المكان المفتوح:

تتجلى جدلية الألفة والانفتاح من خلال شعور الشخصية بالراحة والطمأنينة وهذا ما يؤثر ايجابا على نفسيتها، إذ تتسع الآفاق ويزول الإحساس بالقيود، فيه يتنفس الفرد راحته، وتتجسد علاقته العفوية بالطبيعة والحياة، لذلك فالمكان الأليف هو((المكان الذي يترك أثرا عميقا وحببا في النفس كأن يكون مكان الطفولة الأولى أومكان الصبا والشباب)) (شاكر، ١٩٨٦، صفحة ص٥٨)،إذ يمثل المكان المفتوح الأليف أفقاً للحرية الممكنة والانتماء، وعليه يمكن القول أنَّ المكان الأليف المفتوح في روايات الزيدي، شكَّل محوراً بنيوياً وجمالياً لا غنى عنه لفهم خطابه الروائيّ، إذ ينهض بوصفه وسيطاً بين الذات والعالم وفضاء تتكثَّف فيه الأسئلة الوجودية والاجتماعية، وهذا ما أشار في قوله:

((مثل كلِّ ساعة غروب يلتقي كلَّ مساء وحيد ابن عباس الزنكي الشاب الأسمر مع رازقية البنت المتبناة رسمياً من قبل العائلة المالكة، وهي العاشقة المتيمة به، صهباء بشعرها الذهبي تنتظر عشيقها ابن الزنكي تحت شجرة الصنوبر في أقصى الحديقة الخلفية للقصر كلَّ يوم، قدَّم لها ماعوناً من التمر البرحيّ وقدمت له حرزاً ملفوفاً بقطعة جلد جوزية" سيحفظك من الشرّ، شدّه الآن على زندك الأيسر وقبل فوات الأوان)) (الزيدي خ.، رواية الملك في بيجامته، ٢٠٢١، صفحة ص٣٦).

نرى في هذا النص الروائي أنَّ المكان شكلَّ أهمّ المكونات البنائية في الخطاب السرديّ، إذ لا يقتصر دوره على احتضان الحدث، بل يتجاوز ذلك للإسهام في تشكيل الدلالة النفسية والاجتماعية للشخصيات، ويكتسب المكان أهمية مضاعفة حين يكون مفتوحاً وأليفاً، لأنَّه يتيح للشخصية الانفلات من القيود الصارمة للمؤسسة والسلطة، ويمنحها فضاء للتلاقي الإنساني الحرّ، يُحَدِّدُ المكان في النصّ" أقصى الحديقة الخلفية للقصر" وتحت" شجرة الصنوبر" وهو اختيار دالٌ بامتياز.

فالحديقة فضاء طبيعي مفتوح يرتبط بالخصب والسكينة والتجدد، بينما أقصى الحديقة يشير إلى البعد عن المركز السلطوي المتمثِّل بالقصر، هذا البعد المكاني يحتضن العاصمة بعيداً عن العيون والقيود الاجتماعية، كما أنَّ تكرار اللقاء "كل ساعة غروب" يرسخ ألفة المكان، فالزمن هنا يتواطأ مع المكان في إنتاج شعور الأمان والاستمرارية، والغروب بدلالته الانتقالية بين الضوء والظلمة ينسجم مع طبيعة العلاقة العاطفية السرِّيَّة فيجعل المكان المفتوح حاضناً لمشاعره التي لا يمكن الإعلان عنها في مكان مغلق، نظراً للدور الفاعل الذي يلعبه في احتضان الأحداث، يؤدي المكان المفتوح الأليف دور الوسيط في بناء العلاقة بين الأنا المتمثلة بشخصية "وحيد ابن عباس الزنكي" والآخر المتمثل بشخصية "رازقية" البنت المتبناة من قبل العائلة المالكة، إذ يذيب الفوارق الاجتماعية الحادة بين الطرفين، ويتجلى ذلك في تبادل الهدايا "التمر البرحي والحرز، وكأن الطبيعة شاهدة على هذا التآلف والتواشج بين الأنا والآخر، مما يسهم المكان في تعميق وعي الأنا والآخر بوصفه شريكاً وجوديا لا مجرد موضوع حبٍّ. وهنا يتحول المكان الأليف إلى مساحة اعتراف غير منطوق تبنى فيها علاقة الأنا والآخر على المشاركة الوجدانية لا على الهيمنة أو التراتب، لأنَّ المكان المفتوح الأليف ليس عنصراً

محايداً بل هوفاعل سردي يسهم في تفكيك الحدود الاجتماعية، وإعادة تشكيل العلاقة بين الأنا والآخر، فالمكان في النص يتجاوز كونه خلفية للحدث ليصبح شرطاً ضرورياً لوجود العلاقة ذاتها واستمرارها.

وفي نص آخر من نصوص الكاتب لم يشكل المكان المفتوح الأليف إطاراً خارجياً فحسب، وإنَّما جاء كعنصر بنيويٍّ فاعل في خطابه السردي الروائيّ، إذ يقول:

((يبدأ برنامجه اليومي المعتاد في السادسة والنصف صباحاً، عندما يخرج من بيته في منطقة العاقولية في عقر الحيدر خانة واضعاً سدراته الفيصلية بشكلٍ مائل على رأسه، مقلداً موضة الشباب في تلك الأيام، يذهب مباشرة إلى سوق التكمخانة ليفطر بوجبته المفضلة بالكاهي وقيمر العرب مع طبقاً خاص من الشيرة. يشرب ثلاثة استكانات من الشاي ليقتل الدسومة العالية مستمعاً لشدوبلبل الإذاعة الذي يعلن في تلك الساعة عن دبيب حركة الحياة في بغداد على إيقاع ربلات الخيل التي تنقل وجهاء وتجار بغداد إلى الشورجة وسيد سلطان علي، يذهب في حال سبيله ليقتني جريدة الزوراء المفضلة لديه، يطويها ويضعها تحت إبطه، ثُم يذهب سيراً على الأقدام ليعبر جسر الوثبة وصولاً إلى دائرة الاتصالات والبرق ويبقى هناك حتى الثانية ظهرا)) (الزيدي خ.، رواية الملك في بيجامته، ٢٠٢١، صفحة ص٤٨).

يبرز المكان في هذا المشهد الروائي بوصفه مكاناً مفتوحاً أليفاً تتداخل فيه الجغرافية اليومية لبغداد مع الذاكرة الجمعية والحركة الاجتماعية، ممَّا منحها بعداً دلالياً تجاوز الوصف إلى التشكيل النفسيّ والثقافي للشخصية، يتوزع النصُّ على سلسلة من الأمكنة المفتوحة ضمن فضاءات مكانية محددة "، السوق، الجسر، الشارع، " هذه الأمكنة لم تكن مغلقة ولا معزولة بل منفتحة على حركة الناس والزمن والحياة اليومية، غير أنَّ انفتاحها لا يحمل دلالة الاغتراب أو الضياع، بل تتسم بالألفة والاعتياد، وهذا ما يتجلى في البرنامج اليومي منذ السادسة والنصف صباحاً، جاءت الألفة نتيجة التكرار الزمني اليومي المعتاد، وهذا ما منح المكان طابع الاستقرار من خلال ذكره للانغماس الحسيّ، والطعام، والشاي، والأصوات كشدو بلبل الإذاعة، وربلات الخيل، كما قام بتحديد المكان من خلال ذكره لسوق التكمخانة، والشورجة، وبهذا تحوَّل المكان المفتوح إلى فضاء مألوف لا يهدد الذات بل يحتضنها، ويجعل الحركة فعلا طبيعياً منسجماً مع إيقاع الحياة، كما عمل المكان الأليف على تثبيت الهوية، للأنا المتمثلة بشخصية جميل من خلال معرفة طريقها وأمكنتها وعاداتها،((فالهوية السردية للأفراد هي هوية متغيرة، ومتناقضة ومتداخلة)) (إسماعيل، ٢٠١٩، صفحة ص١٠٢)، كما حققت الطمأنينة من خلال الانتقال السلس من البيت إلى السوق أو الجسر، فإنَّ الأنا لا تبنى في مواجهة المكان بل من خلاله فالمكان المفتوح الأليف يعمل بوصفه مرآة لهوية مستقرة ومنسجمة مع ذاتها.

أمَّا الآخر فإنَّه لا يظهر كشخصية فردية محددة بل كآخر جمعيّ "كرواد السوق، ووجهاء وتجار بغداد"، هذا الآخر لم يقدَّم بوصفه نقيضاً للأنا بل بوصفه جزءًا من المشهد اليومي الذي تتحرك فيه الذات، فالمكان المفتوح يسمح بتجاوز الأنا والآخر دون صدام، إذ تتقاطع المسارات في السوق والجسر والشارع، وهنا يؤدي المكان دور الوسيط الذي يذيب الحدود بين الفرد والجماعة؛ وبين الأنا والآخر، ويؤكد على العلاقة مع الآخر عبر المشاركة في العادات نفسها "الطعام، الشاي، الاستماع للإذاعة".

لقد برز المكان الأليف المفتوح في النص بوصفه عنصراً مركزياً في تشكيل البنية السردية والهوية الذاتية، فالمكان لا ينتج شعور الاغتراب، بل يؤسس لحالة من الانسجام بين الأنا وفضائلها، ويتيح تفاعلاً طبيعياً مع الآخر، داخل إطار الحياة اليومية، من خلال هذا التمثيل تتحول بغداد إلى فضاء حميمي مفتوح يعيد تعريف العلاقة بين الفرد والمجتمع، ويجعل من المكان شريكاً فاعلاً في إنتاج المعنى السرديّ والإنساني.

وفي مشهد آخر من نصوص الكاتب تجلت أهمية المكان المفتوح بوصفه كعنصر فاعل في الخطاب السرديّ، إذ لا يقتصر حضوره على كونه إطاراً للأحداث، بل يتجاوز ذلك ليشكل وعي الشخصيات ورؤيتها للعالم، ومن ذلك قوله:

((ثمَّ عرجت على الأنهار المتدفقة، هذا نهر الكوثر بضفاف من الياقوت والحصى والبلور، ثمَّ إلى نهر اللبن الدافق ما بين الحصى والترائب، ثمَّ نهر العسل الجاري يعيد لكبار السنِّ صحتهم بالرغم من شبح مرض السكري الذي حملوه معهم من الحياة الدنيا. جذبتني رائحة الخمر على ضفاف النهر الثالث للخمرة الرائقة مزاجها وفضاء السكينة والراحة، كانت الأرواح تشتكي لي أنَّه لا يصلح للاحتساء كونها نوعية الخمرة التي لا تنعش ولا تسكر)) (الزيدي خ.، رواية عمتي زهاوي، ٢٠٢٠، صفحة ص٧٠).

يكتسب المكان المفتوح الأليف في النصوص الروائية للكاتب أهمية كبيرة لما يحمله من إيحاءات الطمأنينة والانفتاح والانسجام الوجودي، إذ يحضر المكان المفتوح الأليف عبر صورة الأنهار المتدفقة والتي تتسم بعدَّة خصائص تجعلها تنتمي بوضوح إلى الفضاءات المفتوحة الأليفة، فالأنهار فضاءات ممتدة غير مغلقة توحي بالحركة والاستمرارية، والتدفق هنا ليس مادياً فحسب، وإنَّما رمزياً يحيل إلى انسياب الزمن وغياب الحدود، كما أنَّ اقتران الأنهار بموادّ نفيسة "كالياقوت والبلور" وبعناصر غذائية شفائية كالعسل واللبن خلق إحساساً بالسكينة والأمان، وحوَّل المكان إلى فضاء احتضان لا تهديد فيه.

تظهر الأنا بشخصية "حسن" في حالة حركة تأمُّلية مستمرة، ((وهي الجانب الواعي لذات الشخصية الإنسانية ومشاعرها وأفكارها، وكل ما هو خارج عنها ويحيط بها سواء كان مادياً أو معنوياً)) (البوغبيش، ٢٠٢٠، صفحة ص٤٢)فقوله:" ثم عرجت على الأنهار المتدفقة" ففعل العروج يدل على ارتقاء روحيٍّ ومعرفيٍّ يكشف عن تحوُّلٍ في وعي الأنا بفعل المكان، في هذا الفضاء المفتوح تتحرَّر الأنا من أثقال الجسد والتاريخ، فتتأمَّل دون خوف، وتتذوق دون قلق، حتَّى القضايا الصحية التي كانت مصدر تهديد في الحياة الدنيا كالسكري تفقد سطوتها مما يعكس انتصار الطمأنينة على الهشاشة الإنسانية، كذلك فإنَّ الأنا لا تكتفي بالمشاهدة بل تؤول المكان وتفهم قوانينه الجديدة، فتدرك أنَّ خمرة الآخرة ليست كخمرة الدنيا، وأنَّ المتعة هنا منزهة عن الأذى وهذا ما يعكس نضجاً إدراكياً نابعاً من انسجام الأنا مع المكان.

أمَّا الآخر فيحضر عبر الأرواح التي تشتكي، وهو حضور مختلف عن الآخر في الأمكنة العدائية أو المغلقة، فالأرواح لا تنازع الأنا ولا تعاديها، بل تتجاوز معها وتبثُّ شكواها، وهذا ما يدلُّ على أنَّ المكان المفتوح الأليف يذيب الصراعات ويعيد صياغة العلاقة على أساس المشاركة الوجدانية، يسهم المكان المفتوح والأليف في إقامة علاقة تفاعلية متوازنة بين الأنا والآخر، وبين الزمان والمكان، تقوم على الحوار لا على الصدام، وعلى المشاركة لا على الإقصاء، فالأنا تستمتع والآخر يبوح، وكلاهما يتحرَّك داخل فضاء يمنح المعنى ولا يفرضه

بشكلٍ قسريٍّ، وبذلك يتحوَّل المكان إلى وسيطٍ دلالي يعيد تنظيم العلاقات الإنسانية وفق منطق الطمأنينة والانسجام، لقد وظَّف الكاتب المكان المفتوح الأليف في رواياته، بوصفه عنصراً مركزياً في بناء الدلالة، إذ يسهم في تهدئة الأنا، وإعادة تعريف علاقتها بالآخر، وتجاوز توترات العالم الأرضيّ، فالأنهار ليست مجرد معالم مكانية بل رموز لانفتاح الوجود، وتحوُّل الوعي وانتقال الإنسان من ضيق التجربة الدنيوية إلى رحابة التجربة الأخروية، وبهذا يغدو المكان فضاء للشفاء والحوار والتصالح الوجوديّ.

٢- المكان المغلق:

يعد المكان من أهم العناصر التقنية التي تحتضن الأحداث داخل إطارها المكاني، وتلك الأماكن ((هي الأماكن التي تشير إلى معاني الراحة والطمأنينة باعتبارها ملجأ يلجأ إليه الانسان)) (مقلاتني، ٢٠١٧، صفحة ص٣٩) ، كما أنَّه استطاع تشكيل وعي الشخصية وبناء علاقتها بذاتها وبالآخر، وقد برزت تلك التقنية في أعمال الزيدي، إذ يقول:

((تتكرر الجلسات في مقهى المعتزلة كالعادة، كنت جالساً هذه المرَّة أتلذَّذ بمغازلة استكان الشاي المنتصب كتمثال مخذول على ماعونه الصغير، معتزلاً كجماعة المعتزلة، الذين لا يعجبهم العجب العجاب، بعيدين عن اللذائذ الحياتية العامَّة، عوَّدت نفسي في حالات كهذه ألاَّ أشغل نفسي في التفكير المحتدم مكتفياً بالتلذذ في الفراغ فقط، لا أحبُّ مراقبة رواد المقهى مطلقاً، مثلما أكره مراقبتي من قبل الناس. الرائحة وحدها هي التي تشغلني، أحلِّلها بطريقتي الخاصَّة، وأحيلها وفق خيالي إلى رؤى قابلة للتصديق)) (الزيدي خ.، رواية الملك في بيجامته، ٢٠٢١، صفحة ص١٠٤).

يبرز المكان المغلق بوصفه فضاءً دلالياً كثيفاً، تتقاطع فيه أبعاد نفسية وفكرية، واجتماعية، إذ يتجلى الفضاء المغلق في النصِّ الروائي من خلال توظيفه للمقاهي ولا سيما مقهى المعتزلة، وهو فضاء محدود جغرافياً غير أنَّه مشحونٌ دلالياً، فالمقهى بوصفه مكاناً عاماً يتحوَّل إلى فضاء انعزالي يعاد تشكيله عبر وعي الأنا المتمثلة بشخصية" خالد"، ويعزز التحوُّلُ الوصف الذي يربط المكان بفكرة الاعتزال، سواء عبر التسمية المباشرة "مقهى المعتزلة" أو عبر الإحالات الفكرية إلى جماعة المعتزلة، إذ يتيح المكان المغلق شعور الألفة الاجتماعية، بل ويكرِّس العزلة والانكفاء، ليصبح امتداداً داخلياً لوعي الشخصية، إذ يتماهى الفضاء الخارجي مع الحالة النفسية للأنا.

تقدِّم الأنا بوصفها ذاتاً واعية متأملة تنزع للانفصال عن الآخر مع حاجتها إليه .((كونها تجهل جانباً مهماً من حياتها النفسية)) (لبيب، ١٩٩٩، صفحة ص٢٢)وهذا ما ظهر من خلال انشغالها بالتفاصيل الصغيرة" استكان الشاي، الرائحة، الفراغ" وتجنبها التفاعل المباشر مع روَّاد المقهى، فالأنا لا ترى في المكان فضاءً للتواصل، بل ملاذاً للتأمُّل والانغلاق، يكشف التركيز على الحواس، ولا سيما حاسة الشمّ عن انتقال الأنا من الإدراك الخارجي إلى التأويل الداخلي، إذ لا تكتفي باستقبال الرائحة، بل تحللها وتحيلها وفق خيالها إلى رؤى قابلة للتصديق، وهنا يتحوَّل المكان المغلق إلى محفِّز ذهني، ينتج خطاباً ذاتياً يعزِّز استقلال الأنا الفكرية والعقلية.

أمَّا الأخر فهو يحضر في النصِّ حضوراً سلبياً أو ملغى؛ فهو موجود جسدياً في المقهى كآخر جمعي " رواد المقهى" لكنه غائب عن وعي الأنا، ويتجلى هذا الإقصاء في قول السارد" لا أحبُّ مراقبة رواد المقهى مطلقاً،

مثلما أكره مراقبتي من قبل الناس" فالآخر هنا ليس خصماً ولا شريكاً بل عنصراً مقلقاً يهدد عزلة الأنا، غير أنَّ وصف الآخر بالعاقل لا يأتي من تفاعل مباشراً بل من إسقاط الأنا لوعيها العقلاني على محيطها في نوع التماثل الضمني ولا يمكن الاستغناء عنه أو نفيه نظراً لضرورة وجوده، وارتباطه العضوي والروحي بالنفس الإنسانية.

يعيد المكان المغلق ترتيب العلاقة بين الأنا والآخر على أساس فكري لا اجتماعي إذ يصبح العقل هو الرابط الوحيد الممكن، وإن ظلَّ معطِّلاً بفعل الانسحاب المتعمَّد، أمَّا من الناحية الفنية فإنَّ المكان المغلق الأليف يوظّف بصفته بنية رمزية تعكس موقفاً فلسفياً من العالم، فالتشبيه بجماعة المعتزلة لا يقتصر على التسمية، بل يؤسس لرؤية تقوم على الابتعاد عن اللذائذ الحياتية العامة، والتمركز حول الذات المفكرة، كما أنَّ الجمود الظاهري للمكان "تكرار الجلسات، ثبات المشهد" يقابله حراك داخلي كثيف في وعي الأنا، وهكذا يتحوَّل المكان من إطار ساكن إلى عنصر دينامي يشارك في بناء المعنى، ويكشف عن اغتراب الشخصية ورفضها للتواصل القسري، فانَّ ((المكان الذي يأسر الخيال هو مكان عاش فيه الناس ليس بطريقة موضوعية، وإنَّما بكل ما للخيال من تحيُّزات)) (وآخرون، ١٩٨٨، صفحة ص٦١)، لذلك فإنَّ المكان المغلق في النصّ ليس مجرَّد فضاء مكانيٍّ محدود، بل هو بنية دلالية تسهم في تشكيل الأنا، وتحديد علاقتها بالآخر، فقد أسهم "مقهى المعتزلة" في تكريس العزلة الفكرية، وتعميق النزعة التأمُّلية، وتحويل الآخر إلى كيان هامشي، وبهذا يغدو المكان المغلق أداة فنية فاعلة، تكشف عن رؤية سردية تمنح النصَّ بعداً فلسفياً يتجاوز حدوده السردية الضيقة.

يعد المكان المغلق في روايات الكاتب، وسيلة للدخول في عوالم الأنا والآخر، ويسهم في عملية تشكيل الوعي النفسي والفكري للشخصيات، وهذا ما تمَّ توظيفه من قبله، إذ يقول:

((حضرت مبكراً إلى مقرِّ عملي في الطابق الثالث في أول أيام المهمة، لعقد الاجتماع الأول مع فريق العمل. في البدء كانت العادة اليومية للاسترخاء مع سماع صوت فيروز السحري، يحدث ذلك في ساعة العمل الأولى، غالبا قبل التفكير في أنجع الطرق لتحقيق النجاح)) (الزيدي خ.، رواية يوتيوب، ٢٠٢٢، صفحة ص٥١).

يبرز المكان المغلق في النصّ السرديّ فضاءً دلالياً ساهم في بناء العلاقة بين الأنا" بشخصية عبدالله" والآخر" فريق العمل"، كما يكشف عن توازن دقيق بين الفرديّ والجماعي، يتسم النصُّ بالاقتصاد اللغوي والكثافة الدلالية، إذ يعتمد السرد ضمير المتكلم، وهذا ما يمنح القارئ نفاذاً مباشراً إلى وعي الأنا، إذ يبدأ النصُّ بالفعل الماضي "حضرت" في دلالة على الاستعداد والمبادرة ممَّا أضفى على الشخصية طابع الجدية والانضباط، كما يتدرج السرد من الوصف المكانيّ "مقر عملي في الطابق الثالث" إلى الوصف النفسيّ "العادة اليومية للاسترخاء" ثمَّ إلى البعد العقلي التخطيطي " التفكير في أسهل الطرق لتحقيق النجاح"، وهو تدرُّج عكس انتقال الذات من الإحساس بالمكان إلى إنتاج المعنى داخله.

يمثَّل المكان المغلق بوصفه فضاءً وظيفياً ودلالياً من خلال " مقر عملي" والطابق الثالث" وهو مكان مؤسسي منضبط، تحكمه قواعد العمل والاجتماع، هذا الإغلاق لا يحمل دلالة القمع أو العزلة السلبية، بل يوحي

بالتركيز والتنظيم، ويهيئ الذهن للفعل العقلي الجمعي، من هنا يمكن القول ((إنَّ المكان المغلق هو المكان الذي يبقى فيه الفرد فترات طويلة من الزمن سواء بإرادته أم بإرادة الآخرين)) (أحمد، ٢٠٢٤، صفحة ص١٠٤).

تتجلى الأنا في النصِ بوصفها ذاتاً عاقلة واعية لدورها ومسؤولياتها، تجمع بين الحسِّ الجمالي" الاسترخاء على صوت فيروز" والعقل الأداتيّ " التفكير في أبسط طريقة للنجاح" فالمكان المغلق هنا لا يضغط على الأنا بل يمنحها إحساساً بالأمان والاستقرار، مما سمح بممارسة طقسها الذاتي قبل الانخراط في الفعل الجماعيّ، وهكذا يتحوَّل المكان إلى حاضن للتأمل والتنظيم الداخلي.

أمَّا الآخر فقد حضر عبر "فريق العمل، والاجتماع الأول" وهو حضور جماعيٍّ غير مباشر، لكنَّه مؤثِّر دلالياً، فالمكان المغلق هو الفضاء الذي ستلتقي فيه العقول، وتتشكل بداخله علاقات التعاون والتخطيط، وهذا المكان لا يلغي فردية الأنا بل ينظم علاقتها بالآخر، كما ((يطبع المكان الشخصيات بطابعه، ويمتدُّ تأثيره إلى أعماقها)) (وآخرون، ١٩٨٨، صفحة ص٢٠٠)، ويؤسس لعقل جمعي يسعى إلى تحقيق النجاح، وبذلك يصبح المكان وسيطاً بين الذات الفردية والآخر الجمعي، فالعلاقة بين الأنا والآخر تقوم على جدلية عقلانية متوازنة، وهذا التوازن يعكس رؤية إيجابية للمكان المغلق بوصفه مجالاً للحوار والتخطيط لا للصراع أو الاغتراب، إنَّ المكان المغلق أدَّى دوراً مركزياً في تشكيل الوعي الذاتي والجمعي، وتحوَّل من مجرد إطار مكاني إلى عنصرٍ فنيٍّ ودلالي، يربط الأنا والآخر من خلال الفضاء المؤسسي المنظم، وهنا ينجح النصُّ في تقديم صورة للذات المهنية المتوازنة في أفق مشترك، وهو أفق النجاح.

يستمر الكاتب في إدراج المكان المغلق ضمن أعماله الروائية، والذي يعتمد على الإيحاء أكثر من التفصيل، إذ يستثمر البنية العائلية والمهنية للكشف عن شبكة من العلاقات الفكرية والنفسية لذلك نستطيع القول:((إنَّ البيئة الموصوفة تؤثر على الشخصية وتحفزها على القيام بالأحداث، وتدفع بها إلى الفعل حتى أنَّه يمكن القول بأنَّ وصف البيئة هو وصف مستقبل الشخصية)) (بحراوي، ١٩٩٠، صفحة ص٣٠) ، وقد عبر عن ذلك من خلال قوله:

((استقرَّ الأب في إنكلترا وعاش فيها وعمل في مؤسسة العمة كمهندس مدنيٍّ بدرجة خبير استشاري، كان يصرُّ الأب على أن يكون حسن . ابنه الوحيد . مهندساً ناجحاً، ليخلفه في المؤسسة، وهذا ما وعدت به العمة. الهندسة في فلسفة حسن الابن طريقة ناجحة لإدراك معنى الوجود الماديّ وإزالة قبح الطبيعة وتراكمات الأرض الخام بعناصر جمالية تجسد أقصى غايات الفنِّ، متوافقاً مع رؤى العمة في هذا المجال)) (الزيدي خ.، رواية عمتي زهاوي، ٢٠٢٠، صفحة ص١١٧).

يتَّخذ المكان بوصفه فضاءً مغلقاً دوراً مهماً ومحورياً في توجيه مسار الشخصيات، ((كما يعدُّ أحد أهمِّ العناصر السردية في الرواية، والمكون الأساسيّ الذي يشكِّل مسرحاً لأحداثها وشخصياتها، وله الأثر الأكبر في تماسك بنائها وتشكيل أجزائها)) (الصابطي، ٢٠٢٣، صفحة ص٢٦٩٨)، وتشكيل وعيها، ولا سيما من خلال العلاقة بين الأب والابن، إذ تتقاطع الإرادة الرمزية والمهنية، يعتمد النصُّ على سرد خبريٍّ مباشر، يقدِّم معطيات أساسية عن الشخصيات ووظائفها الاجتماعية دون اللجوء إلى الزخرفة اللغوية، ممَّا يمنحه طابعاً واقعياً عقلانياً، فالأب يقدِّم بوصفه مهندساً ذا خبرة استشارية، وهو توصيف لا يكتفي بتحديد المهنة، بل يضفي عليها

قيمة معرفية وسلطوية، وهذه السلطة تتجلى في إصراره على أن يسلك ابنه المسار ذاته ليكون امتداداً له داخل المؤسسة، يتمثَّل المكان المغلق في النصِ من خلال المكان الجغرافي "إنكلترا" بوصفها فضاءً محدداً للهجرة والاستقرار والعمل، ولا تظهر كفضاء مفتوح للحرية، بل كحيِّز منضبط تحكمه القوانين والمؤسسات، ولاسيما "مؤسسة العمة" تمثِّل فضاء مغلقاً بامتياز، إذ يتحدَّد المسار المهني، وترسم المستقبل مسبقاً، وتختزل الخيارات الفردية في إطار واحد، فالمكان الذهني الفكري تتحول من خلاله الهندسة نفسها إلى مكان فكريٍّ مغلق إذ يعاد إنتاج القيم نفسها عبر الأجيال.

أمَّا عن العلاقة بين الأنا والآخر في ظل المكان المغلق، فقد مثَّل الأب دور الآخر الذي استند إلى التجربة والخبرة والنجاح المؤسسي، وهو عقل عمليّ نفعي يرى بالاستمرار داخل المكان المغلق ضماناً للاستقرار والإنجاح، في حين مثَّل "حسن الأنا" التي ترفض هذا المكان لكنها تعيد تعريفه، فهولا يعارض الهندسة، بل يمنحها بعداً فلسفياً وجودياً محأولاً توسيع حدود المكان المغلق من الداخل، وهنا تنشأ علاقة جدلية لا صراعية بين الأنا والآخر، فالعقلان يتفقان على الوسيلة "الهندسة" لكنهما يختلفان في الغاية، إنَّ النصَّ يظهر قدرة فنية على توظيف المكان المغلق بوصفه عنصراً دلالياً مؤثراً في تشكيل وعي الشخصيات وعلاقاتها، ومن خلال ثنائية الأنا والآخر، إذ ينجح السرد بإبراز كيفية تعامل الإنسان مع الإغلاق المكانيّ إمَّا بوصفه قيداً يعاد إنتاجه، أو مجالاً يعاد تأويله فلسفياً.

وهكذا يتضح لنا أنَّ المكان في روايات خضير الزيدي ليس مجرَّد إطار للأحداث، بل هو عنصر بنيوي فاعل يسهم في تشكيل وعي الأنا، ورسم ملامح الآخر، كما يسهم في تعميق الصراع النفسي والاجتماعي بينهما، فقد جاء المكان محمَّلاً بدلالات رمزية وجمالية تحركت بين قطبين متقابلين، من الأمكنة المفتوحة والمغلقة، المعادية منها والأليفة، وذلك بما يعكس تعقيدات التجربة الإنسانية التي اشتغل عليها السرد، لقد مثل المكان المفتوح فضاء لامتداد الخيال، والتغيير، في حين ارتبط المكان المغلق بالاختناق والعزلة والرقابة. أمَّا المكان الأليف فقد تجلى بوصفه حاضناً للذاكرة والهوية والانتماء، في حين اتخذ المكان المعادي صورة الفضاء الذي ينتج القلق والاغتراب، فقد وظف الزيدي المكان بوصفه مرآة لتحولات الذات وصراعاتها، ووسيطاً كاشفاً لعلاقة الأنا والآخر، إذ تتقاطع الأبعاد النفسية والاجتماعية والرمزية داخل نسيج سرديٍّ واعٍ يمنح المكان سلطة دلالية تتجاوز حدود الوصف، لتصبح أداة فاعلة في إنتاج المعنى وبناء الرواية.

الخاتمة:

في ختام هذه الرحلة التحليلية في عالم خضير فليح الزيدي الروائي، نصل إلى حقيقة راسخة مفادها أن "المكان "في أعماله لم يكن مجرد وعاء للأحداث، بل كان روحاً تسري في جسد السرد، وشخصية قائمة بذاتها، تتنفس وتتألم وتشارك في صنع المصائر .لقد برهن البحث أن الزيدي قد نحت فضاءاته الروائية بوعي فني عميق، محولاً إياها من مجرد إحداثيات جغرافية إلى تمثلات رمزية وفكرية تعكس قلق الإنسان المعاصر وأسئلته الوجودية الكبرى.

لقد كشفت الدراسة عن أن جدلية" الأنا "و"الآخر "تتجسد بأوضح صورها من خلال تفاعلها مع الأمكنة المعادية والمفتوحة والمغلقة، حيث يصبح المكان ساحة اختبار للهوية، ومحفزاً للذاكرة، ومحركاً للصراع .فالشوارع التي تضيق على ساكنيها، والبيوت التي تتحول إلى سجون، والصحاري التي تعكس خواء الروح، ليست مجرد ديكورات روائية، بل هي جوهر التجربة الإنسانية التي أراد الزيدي تصويرها، وهي تجربة الإنسان العراقي في مواجهة تاريخ مثقل بالحروب والتشظي.

بذلك، يخلص البحث إلى أن فهم الأدب الذي يقدمه خضير فليح الزيدي يمر حتماً عبر بوابة" المكان"، الذي يشكل مفتاحاً تأويلياً أساسياً لولوج عوالمه السردية المعقدة .وتبقى أعماله حقلاً خصباً لمزيد من الدراسات النقدية التي يمكن أن تستكشف أبعاداً أخرى، كتجليات الزمن، أو بناء الشخصية، أو لغة السرد، لتكتمل بذلك أضلاع المثلث الإبداعي الذي يشكل عالمه الروائي الفريد.

Sources and references

- Kulthum Madqan. (٢٠٠٥). The Significance of Place in Tayeb Salih's Novel "Season of Migration to the North". Journal of Arts and Languages, University of Ouargla, Algeria, Issue: .٤
- Assistant Professor Dr. Basim Nazim Sulaiman. (٢٠٢٤). Manifestations of Self and Other in the Poetry of Ulayya bint al-Mahdi. Journal of Tikrit University for Human Sciences, Volume (٢٩), Issue.(٣)
- Ahmed Rahim Karim. (٢٠٠٣). Narrative Terminology in Modern Arabic Literary Criticism. Babylon: Master's Thesis, College of Education, University of Babylon.
- Ahmed Taher Hassanein et al. (١٩٨٨). The Aesthetics of Place. Casablanca, Morocco: Dar Oyoun al-Maqalat.
- Asmaa Laabadla and Iman Sawahliya. (٢٠٢١). Temporal and Spatial Structure in Hamida Chenoufi's Novel "The End". Algeria: Master's Thesis, Faculty of Arts and Languages, University of ٨May.
- Al-Zaydi. (٢٠٢٠). Let the Hedgehog Roll onto His Back. Published jointly by Flamenco and Alwan Publishing Houses.
- Taher Labib. (١٩٩٩). The Image of the Arab Other: Observer and Observed. Lebanon: Unity Studies.:
- Hassan Bahrawi. (١٩٩٠). The Structure of the Novelistic Form: Space, Time, and Character. Beirut: Arab Cultural Center.:
- Hamid Al-Hamdani. (١٩٩١). The Structure of the Narrative Text from a Literary Criticism Perspective. Beirut: Arab Cultural Center for Printing, Publishing, and Distribution.
- Hanan Maqlatni. (٢٠١٧). The Dimensions and Significance of Place in the Novel "The Andalusian House": A Semiotic Study. Algeria: Master's Thesis, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Languages, University of ٨May.
- Khudair Faleh Al-Zaydi. (٢٠١٩). The Novel "Hotel Quistan". Thaer Al-Asami Printing and Artistic Binding.:
- Khudair Faleh Al-Zaydi. (٢٠٢٠). The Novel "My Aunt Zahawi". Cairo: Dar Misr Al-Arabiya.:
- Khudair Faleh Al-Zaidy. (٢٠٢١). The King in His Pajamas. Bayel: Abjad Foundation for Translation, Publishing and Distribution.:
- Khudair Faleh Al-Zaidy. (٢٠٢٢). My Friend the Translator. Published by Kuwaiti publishing house Hikaya.:
- Khudair Faleh Al-Zaidy. (٢٠٢٢). YouTube. Publications of the General Union of Writers and Authors in Iraq.:
- Khudair Faleh Al-Zaidy. (٢٠٢٣). The Daughters of Ghaib Tu'ma Farman. Tunisia: Meskelliani Publications.:
- Dr. Samir Al-Marzouki and Jamil Shaker. (١٩٨٦). An Introduction to Narrative Theory. Baghdad: General Cultural Affairs House.:
- Dr. Mustafa Daba'. (٢٠١٨). The Strategy of Place: A Study in the Aesthetics of Place in Arabic Narrative. Egyptian General Book Organization.:
- Rasoul Balawi and Sadiq Al-Bughaish. (٢٠٢٠). The Dialectic of Self and Other in the Poetry of Salem Abi Jumhur Al-Qubaisi: A Pictorial Study. Al-Quds Open University Journal of Humanities and Social Sciences, Issue: .٥٥:
- Sundus Zarrouki. (٢٠٢٣). The Desert Space in Al-Ziwani's Novel "Muna Shatat: The Resurrection of the Desert". Algeria: Master's Thesis, Faculty of Arts and Languages, Kasdi Merbah University of Ouargla.:

- Siza Ahmed Qasim. (٢٠٠٤). The Structure of the Novel: A Comparative Study of Naguib Mahfouz's Trilogy. Cairo: Family Library.:
- Shahrzad Shihab Ahmed. (٢٠٢٤). The Roman Other in the Poetry of the Abbasid Era in the Third Century AH. Tikrit University Journal of Humanities, Volume (٣١), Issue (٢):.
- Abdul Aziz Al-Ayadi. (١٩٩٤). Michel Foucault: Knowledge and Power. Beirut: University Foundation for Studies, Publishing and Distribution.:
- Abdul Malik Murtad. (١٩٩٨). On the Theory of the Novel. Kuwait: National Council for Culture, Arts and Letters.:
- Ali Halibed Sharshab. (٢٠٢١). Place in the Novel "Sabbar" by Shaker Al-Mayyah. Lark Journal of Philosophy, Linguistics, and Social Sciences, Vol. ٢, No. ٤١:.
- Fatima bint Ahmed bin Hassan Al-Sabti. (٢٠٢٣). Manifestations of Enclosed Space in Narrative Fiction: The Girl of the Island as a Model. Journal of the Faculty of Islamic Studies in Alexandria, Vol. ٤, No. ٣٩:.
- Qada Aqqaq. (٢٠٠٢). The Aesthetics of Place in Contemporary Arabic Poetry. Algeria: Dar Al-Gharb for Publishing and Distribution.:
- Laila Al-Qasimi and Fatima Kazem Zadeh. (٢٠١٤). The Image of Self and Other in the Novel "Sowshun". Journal of Studies in Arabic Language and Literature, a peer-reviewed quarterly, No. ١٩:.
- Dr. Zainab Ali Kazem. (٢٠١٩). Narrative Space in the Novel "The Scent of Sulfur" by Abdul-Hadi Ahmed Al-Fartousi. Journal of the College of Education for Girls, University of Kufa, No. ٥٢:.
- Dr. Muhammad Anwar Ismail. (٢٠١٩). Identity Fragmentation and Splitting in Saif al-Din al-Alusi's Novel "Return to My Bedouin Roots." Journal of the College of Education, Al-Mustansiriya University, Issue ٤٥, October.:
- Muhammad Azzam. (٢٠٠٥). The Poetics of Narrative Discourse. Damascus: Arab Writers Union.:
- Mahmoud Nasser Najm. (٢٠١٦). The Significance of Place in the Novels of Haitham Bahnam Bardi. Baghdad: House of Books and Documents.:
- Mahdi Ubaidi. (٢٠١١). The Aesthetics of Place in Hanna Mina's Trilogy. Damascus: Publications of the Syrian General Authority for Books.:
- Hans Küng, trans. Thamer al-Ghazzi. (٢٠٠٦). No World Peace Without Religious Peace. Nawafidh Journal, Literary Club, Jeddah, Saudi Arabia, Issue ٣٥, March.:
- Wael Fakhr al-Islam Saadneh. (٢٠١٩). Place in Narrative Text: Mabrouk's Novel "In the Presence of Water." Algeria: Master's Thesis, Faculty of Arts and Languages, University of ٨May.:
- Wafaa Abdul-Amir Al-Safi and Iman Matar Al-Sultani. (٢٠٢١). The Self and the Other in Cultural Criticism. Lark Journal of Philosophy, Linguistics and Social Sciences, Vol. ٣, No. ٤٢.